

مصطلح الكلام بين المعنى اللغوي والمفهوم الاصطلاحي

**The Talk term between general meaning
and idiomatic meaning**

محمد بن قويدر

جامعة غرداية، كلية الآداب واللغات، مخبر التراث الثقافي واللغوي والأدبي بالجنوب الجزائري

medbenkouider03@gmail.com

تاريخ النشر: 2022/12/14

تاريخ القبول: 2021/11/21

تاريخ الاستلام: 2021/03/15

ملخص :

إن ظهور أي علم - بلا شك - يصاحبه نشأة مصطلحات ترافقه وتضبطه، و تحصر مسائله، ولما كان النحو من أبرز علوم اللغة فإن مصطلحاته المأخوذة من اللغة الطبيعية تتمايز عن المعنى اللغوي غالبا، وربما تتوافق، وقد يهجم المفهوم الحادث و يغيب المعنى اللغوي، وسنحاول في هذا البحث التطرق إلى شيء من ذلك على سبيل الإشارة والاختصار.

تهدف هذه الورقة البحثية إلى دراسة المصطلح النحوي بين المعنى اللغوي والمفهوم الاصطلاحي ومدى تأثيره بالعقيدة، وعليه فقد تضمنت الدراسة مفهوم الكلام باعتباره العينة التي ركز عليها البحث، فتناولنا بذلك مصطلح الكلام اصطلاحا، ثم لغة، ثم تناولنا مفهوم كلام الله عند أهل السنة، ثم المتكلمين - أعني المعتزلة والأشاعرة -

لنتوصل بذلك إلى جملة من النتائج أهمها: اتفاقهم على المفهوم الاصطلاحي للكلام، واختلافهم في مفهوم الكلام لغة، وذلك ناتج عن اختلاف عقائدهم .

كلمات دالة: مصطلح، كلام، مصطلح نحوي، معنى لغوي، مفهوم اصطلاح.

Abstract :

Certainly, New Termsaccompan All Science Emergence ,Control And Restrict Its Issues. As Well As Grammar Is Most Prominent In Linguistics, Its Idiomatic Terms Often Distinguish From General Language, Coincide Or The New Idiomatic Meaning May Replace The General One.In Thisresearch,Welightsome Of The Previous In Order To Mention Breifly.

It Aims To Study The Grammatical Term ,Linguisticand Idiomatic Meaning, And The Influence Affected By Belief. Therefor, This Study Includes The Speech Meaning As The Main Focus Samplehereby. We Have The Idiomatic Speech Meaning , The General, ALLAH's Speech Meaningat Ahlu Sunna , Then The Islam Philosophes - I Mean Mu'tazila And Ash'ariuntilwereach : Their Agreement On The Speech Idiomaticmeaning And Their Distinction On General Speech Meaning Due To Theirdifferentbeliefs.

Key Words : Idiomaticterm, Speech, Gramaticalterm, linguistic-general- meaning, idiomaticmeaning.

مقدمة :

لا شك أن أي علم يظهر لا بد أن تصاحبه مصطلحات تبدأ معه و تتطور بتطوره حتى تكتمل مع اكتمال هذا العلم، ومن ذلك علم النحو الذي نشأ مع العلوم الشرعية التي برزت بعد البعثة النبوية ولأن العلوم لا بد لها من أصول وقواعد تبنى عليها و تحصر مسائلها، وأهم هذه الأصول المصطلح المصاحب لذلك الفن؛ لذا ظهر المصطلح النحوي مبكراً، غير أن الباحث يشكل عليه بعض المصطلحات التي يتداخل فيها المفهوم الاصطلاحي - (النحوي أو العقدي) - مع المعنى اللغوي؛ بل قد يجد أن المفهوم الحادث غلب وطفى على المعنى الأصلي حتى أخفاه و أزاحه، وربما يتوافقان لغة واصطلاحاً، وتكمن أهمية هذا البحث في تتبع أصل المعنى ومدى تأثيره بما ظهر مؤخراً من مفاهيم نحوية أو عقدية.

و سنحاول في هذا البحث أن نتطرق إلى شيء من ذلك على سبيل الإشارة و الإيماء.

و لمعالجة هذا البحث انتهجت الخطة الآتية

مقدمة

الكلام لغة

■ الكلام لغة في المعاجم و القواميس■ الكلام لغة في كتب النحاةالكلام اصطلاحا■ الكلام في اصطلاح النحاةمعتقد الطوائف الإسلامية في كلام الله و أثره في توجيه المعنى اللغوي للكلام.

■ عند أهل الحديث و الأثر (مذهب السلف) .

■ عند المعتزلة .

■ عند الأشاعرة .

خاتمة :

الكلام لغة

الكلام لغة في المعاجم و القواميس

يقول ابن فارس : « كلم الكاف و اللام و الميم أصلان أحدهما يدل على نطق مفهم ... فالأول الكلام تقول كلمته أكلمه تكليما وهو كليمي إذا كلمك أو كلمته ثم يتوسعون فيسمون اللفظة الواحدة المفهمة كلمة والقصة كلمة والقصيدة بطولها كلمة ويجمعون الكلمة كلمات وكلما. قال تعالى يحرفون الكلم عن مواضعه.» (ابن فارس، 1399، صفحة 131/ج5)

جاء في المصباح المنير : « وَالْكَلامُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ عِبَارَةٌ عَنْ أَصَوَاتٍ مُتتَابِعَةٍ لِمَعْنَى مَفْهُومٍ. » (الفيومي، د-تا، صفحة 539)

يقول الفيروزآبادي : « الكلام القول أو ما كان مكتفيا بنفسه ... » (الفيروزآبادي، 1434 - 2013، صفحة 1166)

الكلام لغة في كتب النحاة

يقول الشاطبي:

«... وبعض اللغويين يطلق الكلام على الجمل المركبة المفيدة وهو الذي اختاره ابن جني في تفسيره لغة. واحتج عليه في الخصائص فهو على هذا في عرف اللغة موافق لإطلاق النحويين» (الشاطبي، 1427- 2007، الصفحات 31-32/ ج1)

قوله : بعض اللغويين فيه إشارة واضحة على أنهم لم يتفقوا على معنى الكلام لغة مع إقرارهم أن أصل الكلام في اللغة يراد به « أصوات متتابعة لمعنى مفهوم » ويبدو أن أثر المعتقد هو الذي جرحهم إلى توجيه المعنى بما يخدم عقيدتهم.

ويقول محي الدين عبد الحميد:

« أما الكلام اللغوي، فهو: « عبارة عما تحصل بسببه فائدة، سواء أكان لفظاً أم لم يكن، كالخط والكتابة والإشارة. » (محي الدين عبد الحميد، 1422-2002، صفحة 28)

أما ابن هشام رحمه في شرح الشذور فجعل المعنى اللغوي للكلام يدور حول ثلاثة معان وهي :
« أحدها: الحدث الذي هو التكليم

والثاني: ما في النفس مما يعبر عنه باللفظ المفيد

والثالث: ما تحصل به الفائدة، سواء كان لفظاً، أو خطأ، أو إشارة، أو ما نطق به لسان الحال...
« (ابن هشام الأنصاري، شرح شذور الذهب، 2009، الصفحات 51-56)

استدل ابن هشام متابعاً للتكلمين على أن الكلام يراد به ما في النفس بما نسب إلى الأختل:

لا يعجبك من خطيب خطبة*** حتى يكون مع الكلام أصيلاً

إن الكلام لفى الفؤاد، وإنما*** جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

(ابن رجب، 1425 / 2005، صفحة 105 / ج3)

لكن ابن تيمية وغيره ذكروا أن غاية ما يفهم من البيتين أن [« أصل الكلام من الفؤاد و هو المعنى ؛ فإذا قال الإنسان بلسانه ما ليس في قلبه فلا تثق به... »

وفي نفس السياق يقول ابن تيمية : « نراه أن يعجب بقوله الظاهر حتى يعلم ما في قلبه من الأصل؛ ولهذا قال حتى يكون مع الكلام أصيلاً . وقوله مع الكلام دليل على أن اللفظ الظاهر قد سماه كلاماً وإن لم يعلم قيام معناه بقلب صاحبه وهذا حجة عليهم؛ فقد اشتمل شعره على هذا وهذا؛ بل قوله مع الكلام مطلق وقوله إن الكلام لفى الفؤاد ؛ أراد أصله و معناه المقصود به، و اللسان دليل على ذلك... »

ويؤكد هذا أن الأخطل لم يرد بيان مسمى الكلام هذا على فرض ثبوته له و الأخطل شاعر مولد لا يحتج به في اللغة على الصحيح زيادة على أنه « نصرائي و النصاري أخطئوا في مسمى الكلام فجعلوا المسيح القائم بنفسه هو نفس... » [(ابن تيمية، مجموع الفتاوى، د-تا، صفحة 139/ ج7)

و مما يناقش فيه ابن هشام كذلك في استدلاله أن الإشارة وغيرها داخلية في مسمى الكلام و احتج بقوله تعالى ﴿ قَالَ آيَتِكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا ﴾ [سورة آل عمران الآية 35] فقال إن «...الأصل في الاستثناء الاتصال » (ابن هشام الأنصاري، شرح شذور الذهب، 2009، صفحة 51)

والصحيح أن الاستثناء هنا منقطع والرمز لا يدخل في مسمى الكلام وإن قام مقامه ودليل ذلك لو أن أحدا أشار في الصلاة لأحدهم بشيء ما ، ما بطلت صلاته بخلاف لو كلمه فإنها تبطل، ويؤكد الشوكاني هذا المعنى بقوله: «... والرمز في اللغة : الإيماء بالشفنتين ، أو العينين ، أو الحاجبين ، أو اليدين ، وأصله الحركة ، وهو : استثناء منقطع ، لكون الرمز من غير جنس الكلام ، وقيل : هو متصل على معنى أن الكلام ما حصل به الإفهام من لفظ ، أو إشارة ، أو كتابة ، وهو بعيد . والصواب الأول ، وبه قال الأخفش ، والكسائي... » (الشوكاني، 1434-2013، صفحة 312 / ج1)

ويقول ابن يعيش « وقد يطلق الكلام بإزاء المعنى القائم بالنفس . قال الشاعر :

إن الكلام لفي الفؤاد و إنما *** جعل اللسان عن الفؤاد دليلا

فإذا كان اسم المعنى ، كان عبارة عما يتكلم به من المعنى وإذا كان مصدرا كان عبارة عن فعل الجارحة اللسان، و هو المحصل المعنى المتكلم به؛ وإذا كان اسما للمصدر ، كان عبارة عن التكليم ، الذي هو عبارة عن فعل جارحة اللسان . » (ابن يعيش، 1422-2001، الصفحات 74-75 / ج1)

مما يلاحظ أن تفصيل ابن يعيش وكأنه مطابق لما ذكره ابن هشام في الشذور ، فقد ذكر أن الكلام يطلق على المعنى القائم بالنفس ، كما يطلق على الحدث أي : التكليم.

ويقول ابن جني: «... ومن أدلّ الدليل على الفرق بين الكلام والقول إجماع الناس على أن يقولوا : القرآن كلام الله ، ولا يقال : القرآن قول الله ؛ وذلك أن هذا موضع ضيق متحجر ، لا يمكن تحريفه ، ولا يسوغ تبديل شيء من حروفه. فعبّر لذلك عنه بالكلام الذي لا يكون إلا أصواتا تامة مفيدة ، وعدل به عن القول الذي قد يكون أصواتا غير مفيدة ، وآراء معتقدة. قال سيبويه : «واعلم أن «قلت» في كلام العرب إنما وقعت على أن يحكى بها ، وإنما يحكى بعد القول ما كان كلاما لا قولاً»... (ابن جني، 1428-2007، صفحة 65 / ج1)

يبدو أن ابن جني يقرر أن الكلام لا يكون إلا مفيدا في الإطلاق اللغوي فيكون بذلك مرادفا لاصطلاح النحاة، خلافا لمن لم يشترط الفائدة في الكلام لغة. ويؤكد هذا بقوله :

«... فقد ثبت بما شرحناه و أوضحناه أن الكلام إنما هو في لغة العرب عبارة عن الألفاظ برؤوسها المستغنية عن غيرها و هي التي يسميها أهل هذه الصناعة الجمل ، على اختلاف تركيبها . وثبت أن القول عندهم أوسع من الكلام تصرفا ، وأنه قد يقع على الجزء الواحد وعلى الجملة و

على ما هو اعتقاد و رأي لا لفظ وجرس ... » (ابن جني، 1428-2007، صفحة 74 / ج1)

ونجد أن بعضهم يجعل الكلام أوسع من حيث اعتبار الفائدة، كما في قول ابن عثيمين :
«...فالكلام في اللغة يطلق على كل شيء، فكل ما تكلم به الإنسان من مفيد، وغير مفيد، فإنه كلام في اللغة العربية» (ابن عثيمين، 1442، صفحة 24)

ويقول عبد الله الفوزان :

«الكلام لغة : اللفظ الموضوع لمعنى؛ مفيدا أو غير مفيد. » (الفوزان، د-ت، صفحة 23)

الكلام اصطلاحا

الكلام في اصطلاح النحاة

يعد الكلام من أبرز المصطلحات التي يتطرق لها النحاة إنك لتلمس هذا و تجده في جل مصنفاتهم النحوية المطولة منها و المختصرة نظما و نثرا فها هو ابن آجروم يقول في متن الآجرومية :

« الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع » (ابن آجروم، 1440 - 2019، صفحة 03)

ولاشك أنه يريد المعنى الاصطلاحي لذا قال ناظم الآجرومية عبيد ربه الشنقيطي :

إن الكلام عندنا فلتستمع *** لفظ مركب مفيد قد وضع »

(الونشريسي، 1434 - 2013، صفحة 22)

و الشاهد من قول الناظم « عندنا » قال الشارح للنظم « أي عند معشر نخة العرب »
(الونشريسي، 1434 - 2013، صفحة 22)

أما ابن هشام الأنصاري فيقول في شرح القطر : « ص والكلام لفظ مفيد. ش لما أنحيت القول في الكلمة وأقسامها الثلاثة شرعت في تفسير الكلام فذكرت أنه عبارة عن اللفظ المفيد ونعني باللفظ الصوت المشتمل على بعض الحروف أو ما هو في قوة ذلك فالأول نحو رجل و فرس والثاني كالضمير المستتر في نحو اضرب و اذهب المقدرة بقولك أنت ونعني بالمفيد ما يصح الاكتفاء به فنحو قام زيد كلام لأنه لفظ يصح الاكتفاء به وإذا كتبت زيد قائم مثلا فليس بكلام لأنه وإن صح الاكتفاء به لكنه ليس بلفظ وكذلك إذا أشرت إلى أحد بالقيام أو القعود فليس بكلام لأنه ليس بلفظ . » (ابن هشام الأنصاري، 2004، صفحة 58)

ومن خلال ما أورده ابن هشام يتضح لك جليا أن النخاة يخرجون الكتابة و الإشارة من مسمى مع حصول الاكتفاء بهما ومما تقدم يتبين أن الكلام لا بد أن يكون لفظا.
ويقول :

« و الكلام قول مفيد مقصود » (ابن هشام الأنصاري، شرح شذور الذهب، 2009،
صفحة 50)

زيادة على ما تقدم يشترط ابن هشام القصد في الكلام فيخرج بذلك كلام المجنون والساهي و
النائم .

وقال ابن مالك في تعريف الكلام في ألفيته :

كلامنا لفظ مفيد كاستقم* واسم وفعل ثم حرف الكلم**

(ابن مالك، 2004، صفحة 16)

قال ابن عقيل : الكلام المصطلح عليه عند النخاة ؛ عبارة عن اللفظ المفيد فائدة يحسن
السكوت عليها... » (ابن عقيل، 2004، صفحة 16)

و من تأمل في تعريف ابن مالك يجده مطابقا لما قرره ابن أجروم إلا أن ابن مالك ذكر اثنين
وأشار إلى اثنين بالمثل فقد ذكر :

1/ اللفظ 2/ والمفيد

وأشار بالمثال إلى : 3/ المركب و4/ الوضع بقوله (كاستقم) و إلى هذا ذهب غير واحد من شراح الألفية.

ويقول الشاطبي: « لما كان الكلام ينطلق على أشياء لغة واصطلاحاً، فيطلق في اللغة القول بترادف، وينطلق أيضاً في اصطلاح المتكلمين على المعنى القائم بالنفس، ومراد الناظم - رحمه الله - حد الكلام في اصطلاح النحويين وهو مغاير لذنيك الإطلاقين أخرجهما بقوله: (كلامنا) يعني كلام النحويين وهو المراد بضمير المتكلم ومع غيره، أي كلامنا أيتها الطائفة النحوية كذا، وهو داخل فيهم ولذلك أتى بضمير المتكلم ومع غيره... فيخرج الكلام في اصطلاح المتكلمين، وكذلك المكتوب فإنه لا يطلق عليه كلام في الاصطلاح إلا مجازاً، وكذلك الإشارة لا تسمى عندهم كلاماً وإن جاء ذلك في الشعر ، وينشد النحويون عليه:

أرادت كلاماً فاتقت من رقيبها*** فلم يك إلا ومؤها بالحواجب

(أبو حيان، د-تا، صفحة 25/ ج1)

أي لم يكن الكلام إلا ومأها والومء والإيماء: الإشارة... » (الشاطبي، 1427-2007، الصفحات 31-32/ ج1)

أشار الشاطبي هنا إلى أن للكلام إطلاقات؛ فيطلق على اللفظ المركب المفيد عند النحاة، ويكون مرادفاً للقول لغة، و يطلق على المعنى القائم بالنفس في اصطلاح المتكلمين.

« ... والمفيد ما يحصل منه عند السامع معنى لم يكن عنده ... » (الشاطبي، 1427-2007، الصفحات 31-32/ ج1)

نجد الشاطبي وكأنه يشترط حصول فائدة جديدة لم تكن عند السامع من قبل ليكون كلاماً وهذا محل خلاف بين النحاة.

تحرير المصطلح:

مما سبق فإن مصطلح الكلام عند النحاة يطلق على اللفظ المركب المفيد بالوضع، ولا يدخل تحت مسماه؛ الإشارة، ولا الكتابة، ولا غيره مما يحصل به فائدة - ذكر بعضهم أن الإفادة محصورة في خمسة أقسام؛ اللفظ، و الكتابة، و الإشارة و العقد، و الحال أو النصبه -.

و مما تجدر الإشارة إليه أن النحاة قد اتفقوا على مفهوم مصطلح الكلام. واختلفوا في مسائل فرعية تندرج تحته كاشتراط أن تكون الفائدة جديدة، وحصول الفائدة هل يراعى فيه المتكلم أم السامع.

معتقد الطوائف الإسلامية في كلام الله و أثره في توجيه المعنى اللغوي للكلام.

عند أهل الحديث و الأثر (مذهب السلف) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « زعم بعضهم أن الكلام ليس إلا الحرف والصوت فقط، وأن المعاني المجردة لا تسمى كلاماً أصلاً، وليس كذلك ، بل الكلام المطلق اسم للمعاني والحروف جميعاً، وقد يسمى أحدهما كلاماً مع التقييد كما يقول النحاة الكلام اسم، وفعل، وحرف، فالمقسوم هنا اللفظ، وكما قال الحسن البصري: ما زال أهل العلم يعودون بالتكلم على التفكير، و بالتفكير على التدبير، ويناطقون القلوب حتى نطق، وكما قال الجنيد: التوحيد في القلب، و التوكل عمل القلب، فجعلوا للقلب نطقاً، وقولاً، كما جعل النبي صلى الله عليه وسلم للنفس حديثاً في قوله : إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها، ثم قال ما لم تتكلم به أو تعمل به [متفق عليه واللفظ لمسلم 127، والبخاري 2528] ؛ فعلم أن الكلام المطلق: هو ما كان بالحروف

المطابقة للمعنى. » (ابن تيمية، مجموع الفتاوى، د-ت، الصفحات 179-180/ ج7)

إن المتأمل لما قرره ابن تيمية يجده قد جمع بين الأقوال المتضاربة في تحديد معنى الكلام لغة فإنه يرى أن الكلام يصدق على المعنى واللفظ عند الإطلاق وقد يراد به أحدهما عند التقييد وبهذا يكون قد وفق بين ما عهد من كلام العرب.

ويقول السجزي : «...اعلموا - أرشدنا الله وإياكم - أنه لم يكن خلاف بين الخلق على اختلاف نحلهم من أول الزمان إلى الوقت الذي ظهر فيه ابن كلاب والقلانسي والصالحي والأشعري وأقرانهم اللذين يتظاهرون بالرد على المعتزلة وهم معهم بل أحسن حالا منهم في الباطن في أن الكلام لا يكون إلا حرفاً وصوتاً ذا تأليف واتساق وإن اختلفت به اللغات

وعبر عن هذا المعنى الأوائل الذين تكلموا في العقلية وقالوا: الكلام حروف متسقة، وأصوات مقطعة. » (السجزي، 1414، الصفحات 80-81)

وعلى هذا درج أئمة السلف على اختلاف مذاهبهم وأمصارهم، فتنوعت كتاباتهم في تقرير هذا المعنى الذي ذكره السجزي؛ فمنهم من ألف استقلالاً، ومنهم من ألف في الرد على من خالفهم من المتكلمين، وهذه طائفة من كتبهم كالإيمان لابن منده، وكتاب ذم الكلام وأهله لعبد الله الهروي، وكتاب التمهيد لابن عبد البر، وشرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، وكتاب خلق أفعال العباد للبخاري.

وكتب ابن تيمية وابن القيم مشحونة في تقرير مذهب السلف والدفع عنهم، وشهرتها تغني عن ذكرها.

وفي سياق تقرير معتقد السلف في الكلام نجد ابن تيمية يقول:

« إن القرآن جميعه كلام الله، حروفه و معانيه، ليس شيء من ذلك كلاما لغيره، أنزله على رسوله و ليس القرآن اسما لجرد المعنى ، و لا لجرد الحرف ، بل لمجموعهما ، وكذلك سائر الكلام ليس هو الحرف فقط ، و لا المعاني فقط كما أن الإنسان المتكلم الناطق ليس مجرد الروح و لا مجرد الجسد ، بل مجموعهما و إن الله تعالى يتكلم بصوت كما جاءت به الأحاديث الصحاح، وليس ذلك كأصوات العباد، لا صوت القارئ و لا غيره ، وإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته لا في صفاته و لا في أفعاله فكما لا يشبه علمه وقدرته و حياته علم المخلوق وقدرته و حياته فكذلك لا يشبه كلامه كلام المخلوق و لا معانيه تشبه معانيه و لا حروفه يشبه حروفه و لا صوت الرب يشبه صوت العبد ، فمن شبه الله بخلقه فقد ألحد في أسمائه و آياته، و من جحد ما وصف الله به نفسه فقد ألحد في أسمائه و آياته ... » (ابن تيمية، التسعينية، 1420-1999، صفحة 542)

وقد تضافرت أدلة الكتاب والسنة على هذا المعتقد فهاهو ابن تيمية يدافع عن مذهب السلف فيقول: « النداء في لغة العرب هو صوت رفيع ، لا يطلق النداء على ما ليس بصوت لا حقيقة

ولا مجازا » (ابن تيمية، مجموع الفتاوى، د-تا، صفحة 522/ج12)

و قد جاء عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأَحْبَهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأَحْبُوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوَضَّعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ » [متفق عليه أخرجه البخاري 3209، ومسلم 2637] ، وفي تقرير هذا جاء في مختصر الصواعق المرسلة: « وقد ذكر سبحانه النداء في تسعة مواضع في القرآن أخبر فيها عند ندائه بنفسه، ولا حاجة أن يقيد النداء بالصوت فإنه بمعناه وحقيقته باتفاق أهل اللغة فإذا انتفى الصوت انتفى النداء قطعاً ولهذا جاء إيضاحه في الحديث الصحيح... » (ابن الموصلي، 1425-2004، الصفحات 459-460)

فعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: « يَحْشُرُ اللَّهُ الْعِبَادَ أَوْ - النَّاسَ - عَرَاةً غُرْلًا بِهِمَا قُلْنَا مَا بِهِمَا قَالَ لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ بَعْدِ أَحْسَبِهِ قَالَ كَمَا يَسْمَعُهُ مِنْ قَرَبٍ أَنَا الْمَلِكُ ... » (الألباني، صحيح الأدب المفرد، 1418-1997)

«... وتقييده بالصوت إيضاحاً وتأكيدها كما قيد التكليم بالمصدر في قوله : وكلم الله موسى تكليماً» (ابن الموصلي، 1425-2004، صفحة 460)

وقد تقرر أن التأكيد لا يدخله المجاز فقوله (تكليماً) ينفي أن يكون الكلام إنما أريد به المجاز ، كذا تكرر النداء في القرآن فإنه لا يحمل إلا على الحقيقة .

و«قال عبد الله بن أحمد سألت أبي رحمه الله عن قوم يقولون: لما كلم الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام لم يتكلم بصوت فقال أبي: بلى إن ربك سبحانه وتعالى تكلم بصوت هذه الأحاديث نروها كما جاءت» (عبد الله بن أحمد، 1406-1986، صفحة 280)

– عند المعتزلة .

يعتقد المعتزلة أن الكلام لا يكون إلا بحرف وصوت، وفي هذه الجزئية يظهر أن قولهم يتوافق مع اصطلاح النحاة والذي عليه المحققون من أهل اللغة، لكنهم في كلام الله عز وجل ينفون أن يكون الله تكلم به حقيقة بحرف وصوت، كما هو معتقد السلف ولا هو كلام نفساني؛ كما زعم الأشاعرة ومن دار في فلكهم، ويقولون إنما هو خلق خلقه الله في جبريل، أو خلقه في غيره، يقول القاضي عبد الجبار في المغني: « [فصل في وصف القرآن وسائر كلام الله تعالى بأنه مخلوق وما يتصل بذلك]: قد بينا فيما تقدم أن كلامه تعالى محدث وإذا ثبت ذلك وجب أن يجري مجرى سائر أفعاله، وإذا كانت توصف بأنها مخلوقة؛ فكذلك القول في القرآن... والقرآن بهذه الصفة، فيجب أن يوصف بأنه مخلوق» اهـ (القاضي عبد الجبار، د-تا، صفحة 208/ ج7)

ويقول الزمخشريُّ المعتزليُّ في كشافه عند قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [سورة الأعراف الآية 143] قال: « من غير واسطة كما يكلم الملك، وتكليمه أن يخلق الكلام منطوقاً به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطاً في اللوح » (الزمخشري، 1418-1998، صفحة 501/ ج2) ، ويقول الفخر الرازي الأشعري: « وأما القرآن الكريم وهو من كلام الله تعالى فإنَّ المعتزلة يقولون: هو مخلوق محدث وذلك لأنَّه نزل بعد التوراة وبعد الإنجيل، والمنزل مخلوق ومحدث » (الرازي، 1413-1993، الصفحات 11-16)

ويستدل المعتزلة على معتقدهم هذا بجملة من النصوص منها: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة الرعد الآية 16] وقالوا: إنَّ كلامه من جملة الأشياء المخلوقة؛ لأنَّ كلَّ تقييد العموم

والاستغراق، لكن يرد عليهم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [سورة آل عمران الآية 35]

وقال تعالى عن عيسى ﴿تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [سورة المائدة الآية 116]

فهل يدخل المعتزلي نفس الله تعالى في هذا العموم؟! ولا شك أن كلام الله تعالى مغاير لمخلوقاته قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [سورة الأعراف الآية 54] فنجد هنا أنه غاير بين الخلق والأمر، فدل على أن كلامه غير داخل في قوله ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة الرعد الآية 16]. ومن أدلتهم أنهم جعلوا الفعل جعل؛ بمعنى خلق دائما، فقالوا إن قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [سورة الزخرف الآية 3] أي خلقه، والرد عليهم بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ [سورة الأنعام الآية 100] ولا يعقل أن المراد أنهم خلقوا لله شركاء لا من جهة اللغة، ولا من جهة واقع من نزل عليهم القرآن، وعند التحقيق يقال: إن جعل إذا تعدى إلى مفعول واحد فهو بمعنى خلق، أما إذا تعدى إلى مفعولين فلا يكون بمعنى خلق بأي حال؛ بل المراد صبر.

ومن أدلتهم أن القرآن محدث كما في قوله ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٌ﴾ [سورة الأنبياء الآية 2] والمحدث عندهم المخلوق، وفي الرد على ذلك قال شيخ الإسلام «المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي ولكنه الذي أنزل جديدا فإن الله كان ينزل القرآن شيئا بعد شيء فالمنزل أولا هو قديم بالنسبة إلى المنزل آخرا، وهو كل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب» (ابن تيمية، مجموع الفتاوى، د-تا، صفحة 522/ ج12) وهناك أدلة أخرى استدلت بها المعتزلة ولا يصح منها شيء.

– عند الأشاعرة

يقول الباقلاني: «فحصل من هذه الجملة أن حقيقة الكلام على الإطلاق، في حق الخالق والمخلوق، إنما هو المعنى القائم بالنفس» (الباقلاني، 1382-1963، صفحة 108) عبارة الباقلاني واضحة في أن الكلام عند الأشاعرة حال الإطلاق إنما يراد به المعنى القائم بالنفس. ويؤكد هذا التقرير الجويني إذ يقول: «... الكلام هو القول القائم بالنفس، وإن رما تفصيلا، فهو القول القائم بالنفس، الذي تدل عليه العبارات و ما يصطلح عليه من الإشارات.» (الجويني، 1369-1950، صفحة 104)

«... وهو الفكر الذي يدور في الخلد، وتدل عليه العبارات تارة» (الجويني، 1369-1950، صفحة 105)

فالأشاعرة يعتقدون أن كلام الله الذي نتلوه مخلوق، وإنما يثبتون لله المعنى دون الألفاظ، وفي ذلك يقول الجويني: «... فإن معنى قولهم (هذه العبارات كلام الله أنها خلقه، لا ننكر أنها خلق الله ولكن نمتنع من تسمية خالق الكلام متكلماً به؛ فقد أطبقنا على المعنى، و تنازعنا بعد الاتفاق في تسميته ...» (الجويني، 1369-1950، الصفحات 116-117)، و يواصل الجويني الدفاع عن مذهبه فيقول:

وكذلك الكلام الأزلي كان على تقدير خطاب موسى إذا وجد، فلما وجد كان خطاباً له تحقيقاً، و المتجدد موسى دون الكلام ...» (الجويني، 1369-1950، صفحة 124)

«ونستدل على بطلانه بما قاله الأمدي أحد حذاق الأشاعرة المعروفين بالذكاء ... فحينما تكلم عن تقرير كلام الله عز وجل وأنه قديم قال: لكن يشكل على هذا شيء عظيم عندي، وهو أن في القرآن ألفاظاً جاءت بصيغة الماضي؛ كقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾ [سورة المجادلة الآية 1] وقوله ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾ [سورة الأنعام الآية 33] ونحو ذلك من الأفعال التي فيها الخبر عن شيء حدث في الزمن الماضي، قال: وهذا له احتمالان: إما أن يكون قد سبق فعلاً، وإما أن يكون الكلام غير مطابق للواقع، وإذا كان غير مطابق للواقع فهو كذب ... فإذا كان كلام الله عز وجل في القرآن قديماً ... فمعناه أن السمع قد حصل وتحقق، فهل كان ثم مجادلة، وهل كان ثم زوج، وهل كان ثم قول حتى يسمعه الله؟ فإذا كان الله عز وجل قال هذا القول في الأزل، ولا زوجة ولا مجادلة ولا قول فما الذي سمعه؟ فيلزم منه أن قوله قد سمع وكل الأفعال الماضية في القرآن أنها غير مطابقة للواقع، وهذا هو الكذب، وهذا مشكل عندي جداً وهذا من أعظم الأدلة على بطلان هذا القول» (صالح آل الشيخ، 1431-2010، الصفحات 567-568/ج1)

«... قال الحنابلة كلامه حرف وصوت يقومان بذاته وإنه قديم» (الإيجي، د-تا، صفحة 293)

نعم ذهب الحنابلة تبعاً لسلف الأمة من الصحابة و التابعين أن كلام الله يكون بحرف وصوت يسمعه من بعد كمن قرب لكن وصفه بالقدم يعنون به أنه باعتبار النوع أما باعتباره آحاده فهو متجدد كما قال تعالى ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ

﴿ [سورة الأنبياء الآية 2] وما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ [سورة الشعراء الآية 5]

« وَقَالَتِ الْمُعْتَزِلَةُ : أصوات وحروف يَخْلُقُهَا اللهُ في غيره كاللوح المحفوظ أو جبريل أو النبي وهو حادث و هذا لا ننكره؛ لكننا نثبت أمراً وراء ذلك و هو المعنى القائم بالنفس؛ ونزعم أنه غير العبارات؛ إذ قد تختلف العبارات بالأزمنة و الأمكنة و الأقوام؛ بل قد يدل عليه بالإشارة والكتابة كما يدل عليه بالعبرة ... » (الإيجي، د-تا، صفحة 294)

وقوله نثبت أمراً وراء ذلك و هو المعنى القائم بالنفس لأن المعتزلة أنكرته.

قال الجويني :

قد أنكرت المعتزلة الكلام القائم بالنفس، وزعموا أن الكلام هو الأصوات المتقطعة و الحروف المنتظمة ونصوا كلاماً قائماً بالنفس سوى العبارات الآيلة إلى الحروف و الأصوات... » (الجويني، 1369-1950، صفحة 104)

وقوله : «على اللفظ» أي: على القرآن بمعنى اللفظ المنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه، والراجح أن المنزل اللفظ والمعنى، وقيل المنزل: المعنى وعبر عنه جبريل بألفاظ من عنده، وقيل المنزل المعنى وعبر عنه النبي، بألفاظ من عنده، لكن التحقيق الأول، لأن الله خلقه أولاً في اللوح المحفوظ، ثم أنزله في صحائف إلى سماء الدنيا في محل يقال له: بيت العزة في ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [سورة القدر الآية 1]

ثم أنزله على النبي صلى الله عليه وسلم مفرقاً بحسب الوقائع. » (البيجوري، 1422-2002، صفحة 162)

خاتمة :

- ومن خلال ما تقدم فقد توصل البحث إلى جملة من النتائج والتوصيات يمكن إجمالها فيما يلي :
- الكلام لغة عند الإطلاق لا يحمل إلا على المعنى واللفظ معا.
 - قد يطلق الكلام على ويراد به المعنى أو اللفظ، لكن مقيدا.
 - اتفق اللغويون والنحاة على اختلاف مذاهبهم على تحديد مفهوم مصطلح الكلام اصطلاحا مع وجود اختلافات فرعية تحت المفهوم العام.
 - بدا جليا التوجيه العقدي للمعنى اللغوي للكلام.
 - تأثر النحاة بالمذاهب العقدية المختلفة في تقرير المعنى اللغوي للكلام، ويظهر ذلك في تقاريرهم عند استدلالهم بنفس الأدلة.
 - كلام الله تكلم الله به حقيقة بحرف وصوت يسمعه من بعد كمن قرب.

قائمة المراجع

1. إبراهيم بن محمد بن أحمد البيجوري. (1422-2002). حاشية البيجوري على جوهرة التوحيد (المجلد ط1). القاهرة: دار السلام.
2. ابن أحمد القاضي عبد الجبار. (د-تا). المغني في أبواب التوحيد والعدل (المجلدات د-ط). القاهرة: الدار المصرية للتأليف.
3. أبو إسحاق إبراهيم الشاطبي. (1427-2007). المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية (المجلد ط1). مكة: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي.
4. أبو البقاء يعيش بن علي الموصللي ابن يعيش. (1422-2001). شرح المفصل للزمخشري (المجلد ط1). بيروت: دار الكتب العلمية.
5. أبو الفتح عثمان ابن جني. (1428-2007). الخصائص (المجلدات د-ط). القاهرة: دار الحديث.
6. أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني. (1382-1963). الإنصاف (المجلد 2ط). القاهرة: مؤسسة الخانجي.
7. أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية. (1420-1999). التسعينية (المجلدات د-ط). الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.
8. أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية. (د-تا). مجموع الفتاوى (المجلد ط3). بيروت، مصر: دار الكتب العلمية.

9. أحمد بن فارس بن زكريا ابن فارس. (1399). معجم مقاييس اللغة (المجلد د ط). (عبد السلام هارون، المحرر) دار الفكر.
10. أحمد بن محمد بن علي الفيومي. (د-تا). المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي (المجلد ط2). القاهرة: دار المعارف.
11. إمام الحرمين الجويني. (1369-1950). الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد (المجلدات د- ط). مصر: مكتبة الخانجي.
12. جابر الله محمد بن عمر الزمخشري. (1418-1998). الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (المجلدات د- ط). الرياض: مكتبة العبيكان.
13. صالح بن عبد العزيز صالح آل الشيخ. (1431-2010). اللآلئ البهية في شرح العقيدة الواسطية. السعودية: دار العاصمة.
14. عبد الرحمن بن أحمد ابن رجب. (1425 / 2005). ذيل طبقات الحنابلة (المجلد ط1). (عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، المحرر) الرياض، السعودية: دار العبيكان.
15. عبد الرحمن بن أحمد الإيجي. (د-تا). المواقف في علم الكلام (المجلدات د- ط). بيروت: عالم الكتب.
16. عبد الله بن أحمد بن حنبل عبد الله بن أحمد. (1406-1986). السنة (المجلدات د- ط). السعودية: دار ابن القيم.
17. عبد الله بن صالح الفوزان. (د-تا). دليل السالك إلى ألفية ابن مالك (المجلدات د- ط). الرياض: دار المسلم للنشر والتوزيع.
18. عبد الله بن عبد الله القرشي ابن عقيل. (2004). شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (المجلدات د- ط). القاهرة: دار الطلائع.
19. عبد الله بن يوسف ابن هشام الأنصاري. (2004). شرح قطر الندى (المجلدات د- ط). القاهرة: دار الطلائع.
20. عبد الله بن يوسف ابن هشام الأنصاري. (2009). شرح شذور الذهب (المجلدات د- ط). القاهرة: دار الطلائع.
21. عبيد الله بن سعيد بن حاتم السجزي. (1414). رسالة السجزي إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت (المجلدات د- ط). الرياض: دار الراجعية للنشر والتوزيع.
22. محمد ابن الموصلي. (1425-2004). مختصر الصواعق المرسلة (المجلدات د- ط). القاهرة: دار الحديث.
23. محمد بن صالح ابن عثيمين. (1442). شرح الألفية (المجلدات د- ط). الرياض: دار المعارف.

24. محمد بن عبد الله ابن مالك. (2004). ألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل (المجلدات د - ط). القاهرة: دار الطلائع.
25. محمد بن علي الشوكاني. (1434-2013). فتح القدير (المجلدات د- ط). بيروت: دار الفكر.
26. محمد بن عمر الرازي. (1413-1993). خلق القرآن بين المعتزلة وأهل السنة (المجلدات د- ط). (محمد الحجازي السقاء، المحرر) بيروت: دار الجيل.
27. محمد بن محمد ابن آجروم. (1440 - 2019). متن المقدمة الآجرومية (المجلد ط2). الجزائر: دار الإمام مالك.
28. محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. (1434 - 2013). القاموس المحيط (المجلد دط). لبنان: دار الكتب العلمية.
29. محمد بن يوسف أبو حيان. (د-تا). التذييل والتكميل (المجلدات د-ط). دمشق: دار القلم.
30. محمد رفيق الونشريسي. (1434 - 2013). الثمرات الحلية في شرح نظم الآجرومية (المجلد ط1). الجزائر: دار الميراث النبوي للنشر والتوزيع.
31. محمد محي الدين عبد الحميد. (1422-2002). التحفة السنية مع الحلل الذهبية (المجلد ط1). صنعاء: دار الآثار.
32. محمد ناصر الدين الألباني. (1418-1997). صحيح الأدب المفرد (المجلد ط4). السعودية: مكتبة الدليل.
33. محمد ناصر الدين الألباني. (1422 / 2002). سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (المجلد 01). الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.